الباب السابع

القرآنُ.. صَوتُ الله

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما منَ الأنبياء نبيّ إلا أُعْطيَ من الآيات ما مثلُه آمَنَ عليه البشرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة[1]».

إن هذا الحديث النبوي يعيّن جوانب بحثنا الصحيحة؛ فهو يقول: إن أهم وسائلنا لمعرفة النبي هو الكتاب الذي جاء به، مدعياً أنه من عند الله، والقرآن هو رسالة الرسول بين ظهرانينا، كما أنه يبرهن على صدقه.

فما الخصائص التي تبرهن على أنَّ القرآن من عند الله؟. إنها متعددةُ الجوانب كثيرة، نستطيع أن نلخصها في الفصول التالية:

أولاً: إعجاز القرآن:

أول خاصة يتنبه إليها الباحث في العلوم القرآنية هي ذلك التحدي الصريح الذي وجهه القرآن إلى الناس كافة، منذ أربعة عشر قرناً، وبخاصة أولئك الذين ينكرون رسالة القرآن، ولم يستطع أحد من عباقرة البشر أن يرد التحدي إلى الآن. لقد أعلن القرآن، بصوت عال، لا إبهام فيه ولا غموض:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

---

(1) صحيح البخاري: الاعتصام.

(2) سورة البقرة: 23.

إنه أغرب تحدٍّ في التاريخ، وأكثره إثارة للدهشة، فلم يجرؤ أحد من الكتاب في التاريخ الإنساني - وهو بكامل عقله ووعيه - أن يقدم تحدياً مماثلاً، فإن مؤلفاً ما لا يمكن أن يضع كتاباً، يستحيل على الآخرين أن يكتبوا مثله، أو خيراً منه.. فمن الممكن إصدار مثيل من أي عمل إنساني في أي مجال. ولكن حين يُدَّعَى أن هناك كلاماً ليس في إمكان البشر الإتيان بمثله، ثم تُخْفِقُ البشرية على مدى التاريخ في مواجهة هذا التحدي، حينئذ يثبت تلقائياً أنه كلام غَير إنساني، وأنها كلمات صدرت عن صميم المنبع الإلهي (Divine Origin)، وكلُّ ما يخرج من المنبع الإلهي لا يمكن مواجهة تحدياته.

❖ ❖ ❖

وفي صفحات التاريخ بعض الوقائع، غَرَّ أصحابَها الغَرُورُ، فانطلقوا يواجهون هذا التحدي.

وأولى هذه الوقائع ما حدث من الشاعر العربي لبيد بن ربيعة، الشهير ببلاغة منطقه، وفصاحة لسانه، ورصانة شعره. فعندما سمع أن محمداً يتحدى الناس بكلامه قال بعض الأبيات رداً على ما سمع، وعلقها على باب الكعبة، وكان التعليق على باب الكعبة امتيازاً لم تستطعْ أن تدركَه إلا فئة قليلة من كبار شعراء العرب، وحين رأى أحد المسلمين هذا أَخذته العزة، فكتب بعض آيات الكتاب الكريم، وعلقها إلى جوار أبيات لبيد، ومر لبيد بباب الكعبة في اليوم التالي، ولم يكن قد أسلم بعد، فأذهلته الآيات القرآنية، حتى إنه صرخ من فوره قائلاً: (والله ما هذا بقول بشر، وأنا من المسلمين)[1].

---

(1) هذا الخبر عن لبيد أورده المؤرخ ج. ساروار في كتابه Muhammad: The Holy Propher ص 488 - كراتشي، وهو على هذا النحو غير مسلم، لأن لبيداً لم يسلم إلا في السنة التاسعة للهجرة، حين وفد على النبي ﷺ ضمن وفد كلاب (انظر: الطبقات الكبرى 6/ 33، وأيضا 1/ 300 - ط بيروت، والشعر والشعراء لابن قتيبة 1/ 275 - تحقيق الشيخ أحمد شاكر). وإنما كان الذي حدث قريباً من هذا الذي ذكره المؤلف مع استبعاد رواية إسلامه، فقد ذكر الحافظ أبو نعيم في الحلية 1/ 103 أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه كان في أول الإسلام يعيش في جوار الوليد بن المغيرة، فلما رأى ما =

وكان من نتيجة تأثر هذا الشاعر العربي العملاق ببلاغة القرآن أنه هجر الشعر، وقد قال له عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوماً: يا أبا عقيل: أنشدني شيئاً من شعرك، فقرأ سورة البقرة، وقال: ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله سورة البقرة وآل عمران[1].

وأما الحادث الثاني فهو أغرب من الأول، وهو عن ابن المقفع، أورده المستشرق (وُلاستن) في كتابه، وعلق عليه قائلاً:

...thet Muhammad's boast as to the literary excellence of the Quran was not unfounded, is furher evidenced by a circumstance ,which occurred about a century after the establishment of Islam.

«... إن اعتداد محمد بالإعجاز الأدبي للقرآن لم يكن على غير أساس، بل يؤيده حادث وقع بعد قرن من قيام دعوة الإسلام[2]».

والحادث، كما جاء على لسان المستشرق، هو أن جماعة من الملاحدة والزنادقة أزعجهم تأثير القرآن الكبير في عامة الناس، فقرروا مواجهة تحدي القرآن،

= يحدث لإخوانه من أذى المشركين عز عليه أن يعذَّبوا دونه، فرد جوار الوليد، ثم مضى إلى الكعبة فوجد لبيد بن ربيعة في المجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد وهو ينشدهم:

(ألا كل شيء ما خلا الله باطل)..

فقال عثمان: صدقت. فقال:

(وكل نعيم لا محالة زائل).

فقال عثمان: كذبت، نعيم أهل الجنة لا يزول، فقال لبيد: يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث فيكم هذا؟. إلى آخر الخبر، ومفهوم هذا أن لبيداً قد بقي على جاهليته حتى أسلم سنة تسع، ويذكر ابنه قتيبة أنه لم يقل في إسلامه غير بيت واحد هو.

الحمد الله إذ لم يأتني أجلي ... حتى كساني من الإسلام سربالا

وقيل قوله:

ما عاتَبَ المَرء الكَريم كنفسه ... والمرء يصلحهُ الجليسُ الصالحُ

(المراجع).

(1) انظر في هذا الخبر: الشعر والشعراء لابن قتيبة السابق.

(2) Mohammad: His Life & Dotrine, p. . 143.

واتصلوا، لإتمام خطتهم، بعبد الله بن المقفع (727 م)، وكان أديباً كبيراً، وكاتباً ذكياً يُعْتد بكفاءته، فقبل الدعوة للقيام بهذه المهمة. . وأخبرهم أن هذا العمل سوف يستَغرق سنة كاملة، واشترط عليهم أن يتكفلوا بكل ما يحتاج إليه خلال هذه المدة. .

ولما مضى على الاتفاق نصف عام، عادوا إليه، وبهم تَطَلُّعٌ إلى معرفة ما حققه أديبهم لمواجهة تحدي رسول الإسلام؛ وحين دخلوا غرفة الأديب الفارسي الأصل، وجدوه جالساً والقلم في يده، وهو مستغرق في تفكير عميق، وأوراق الكتابة متناثرة أمامه على الأرض، بينما امتلأت غرفته بأوراق كثيرة، كتبها ثم مزّقها.

لقد حاول هذا الكاتب العبقري أن يبذل كل مجهود، عساه أن يبلغ هدفه، وهو الرد على تحدي القرآن المجيد. . ولكنه أصيب بإخفاق شديد في محاولته هذه، حتى اعترف أمام أصحابه، والخجل والضيق يملكان عليه نفسه، أنه، على الرغم من مضي ستة أشهر، حاول خلالها أن يجيب على التحدي، فإنه لم يفلح في أن يأتي بآية واحدة من طراز القرآن! وعندئذ تخلى ابن المقفع عن مهمته، مغلوباً مستخذياً[1]. .

❖ ❖ ❖

وهكذا لا يزال تحدي القرآن الكريم قائماً ومستمراً على مر القرون والأجيال، وهي خاصة عظيمة ورائعة في صالح القرآن، تثبت، دون مرية، أنه كلامُ من هو فوق الطبيعة. وأيّ إنسان يتمتع بكفاءة التفكير والإمعان في حقيقة الأمر، يكفيه ذلك ليؤمن بهذا الكتاب. .

ومما لا شك فيه أن العرب - وهم الذين لم يعرف لهم مثيل في التاريخ، في البلاغة والبيان، حتى أطلقوا على غيرهم اسم «العجم» لشدة اعتزازهم ببيانهم - قد

---

(1) وردت في التاريخ أمثلة أخرى حاول أصحابها مواجهة هذا التحدي، غير أنهم أخفقوا إخفاقاً ذريعاً، ومن هؤلاء: مسيلمة بن حبيب الكذاب، وطليحة بن خويلد الأسدي، والنضر بن الحارث، وأبو الحسين أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندي، وأبو الطيب المتنبي، وأبو العلاء المعري، صاحب كتاب «الفصول والغايات في مجاراة السور والآيات»، انظر للتفصيل كتاب الرافعي: إعجاز القرآن - المترجم.

اضطروا أن يركعوا أمام القرآن، معترفين بعجزهم عن الإتيان بمثله، فلزمتهم بذلك الحجة..

ومما جاء في كتب الحديث عن ابن عباس أن (ضماداً) قدم مكة. وكان من أزد شنوءةَ. وكان يرقي[1] من هذه الريح (الجنون ومس الجن). فسمع سفهاء من أهلَ مكة يقولون: إن محمداً مجنون. فقال: لو أني رأيت هذا الرجل، لعل الله يشفيه على يديّ. قال: فلقيه؛ فقال: يا محمد! إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟. فقال رسول الله: «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد» قال: فقال: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مراث، قال: فقال: «لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر (قعره الأقصى)[2].

إن هناك عدداً لا يحصى من الاعترافات التي أدلى بها أرباب الشعر والأدب والفكر، في شأن القرآن الكريم، سُطِّرَتْ في صفحات التاريخ القديم، كما أنها توجد بكثرة في تاريخ العصر الحاضر.

---

(1) من الرقية، وهي العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة.

(2) صحيح مسلم 2/ 593 ـ حديث رقم 868 طبعة محمد فؤاد عبد الباقي. وبقية الحديث كما في الصحيح: قال: فقال: هات يدكَ أبايعك على الإسلام، قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك»، قال: وعلى قومي. قال: فبعث رسول الله ﷺ سرية فمروا بقومه، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟. فقال رجل من القوم: أصبت منهم مطهرة، فقال: ردوها فإن هؤلاء قوم ضماد. وتفسير (ناعوس البحر) بأنه: قعره الأقصى ـ منقول عن صحيح مسلم، من إضافة شارحه، وهي كلمة غير معروفة من كلام العرب، قال ابن الأثير في (النهاية في غريب الحديث 5/ 81) عن أبي موسى: «هكذا وقع في صحيح مسلم، وفي سائر الروايات: (قاموس البحر) أي: وسطه ولجته». أقول: ولعلها لهجة ضماد.

ثانياً: نبوءات القرآن:

الجانب الثاني من عظمة القرآن الكريم يتجلى في تنبؤاته المختلفة، التي ثبتت صحتها فيما بعد بطرق عجيبة.

إن عدداً كبيراً من أذكياء الناس، ومن العباقرة، قد جرؤوا على أن يتنبأوا عن أنفسهم أو عن غيرهم. ولكننا نعرف أن الزمان لم يصدق هذه النبوءات مطلقاً، بل جاء يكذبها بكل قسوة. ولقد تحفز الفرص المواتية، والأحوال المساعدة، والكفاءات العالية، وكثرة الأعوان والأنصار، والنجاح الخارق في البداية، كثيرين - وهم يرون أنهم يسيرون تجاه نتائج مرضية - أن يتنبأوا بنتيجة معينة بكل يقين، ولكن الزمن يبطل هذه الدعاوى ويكذبها دائماً. . والزمن نفسه هو الذي أثبت صحة ما جاء في القرآن من التنبؤات - وقد وقعت فعلاً على ما يحدثنا التاريخ - تجعل علومنا المادية حائرة عند تفسيرها. وما دمنا ندرسها في ضوء علومنا المادية، فلن نستطيع إدراك حقائقها، إلا أن ننسبها إلى مصدر غير بشري. .

❖❖❖

كان نابليون بونابرت من أعظم قواد الجيوش في عصره، وقد دلت فتوحاته الأولى على أنه سوف يكون نداً لقيصر، والإسكندر المقدوني. وترتب على ذلك أن وجد الغرور منفذه إلى رأس نابليون، فأصبح يتوهم أنه هو مالك القدر، وازداد هذا الشعور لديه، حتى إنه ترك مستشاريه، وادعى أنه لم يُكْتَبْ في قدره غير الغلبة الكاملة على من في الأرض. ولكنا جميعاً نعرف النهاية التي كتبت له في لوح القدر.

سار نابليون من باريس يوم 12 من يونيه، سنة 1815، مع جحفله العظيم، ليقضي على أعدائه وهم في الطريق، ولم تمض غير ستة أيام حتى ألحق «دوق ولنجتون» شر هزيمة بجيش نابليون الجبار، في «ووترلو» بأراضي بلجيكا. وكان (الدوق) يقود جنود إنجلترا وألمانيا وهولندا. ولما يئس نابليون، وأيقن من مصيره المحتوم، فر هارباً من القيادة الفرنسية متوجهاً إلى أمريكا، ولم يكد يصل إلى الشاطئ، حتى ألقت شرطة السواحل القبض عليه، وأرغمته على ركوب سفينة

تابعة للبحرية البريطانية، وانتهى به القدر إلى أن أرسل إلى جزيرة غير معمورة بجنوب الأطلنطي، هي جزيرة «سانت هيلينا»، ومات القائد العسكري في هذه الجزيرة بعد سنوات طويلة من البؤس والشقاء والوحدة، في 5 من مايو سنة 1821.

❖ ❖ ❖

والبيان الشيوعي المعروف، الذي صدر سنة 1848 م، تنبأ بأن أول البلاد التي ستقود الثورة الشيوعية هي (ألمانيا)؛ ولكن ألمانيا، على الرغم من مضي مائة وعشرين عاماً من هذه النبوءة، لا تزال صفحات تاريخها خالية من مثل هذه الثورة.

ولقد كتب كارل ماركس في مايو سنة 1849 م قائلاً: «إن الجمهورية الحمراء تبزغ في سماء باريس!» ورغم أنه قد مر على هذه النبوءة أكثر من قرن، فإن شمس الجمهورية الحمراء البازغة لم تشرق على أهالي باريس!.

❖ ❖ ❖

وقد قال أدولف هتلر في خطابه الشهير الذي ألقاه بميونيخ في 14 من مارس سنة 1931:

«إنني سائر في طريقي، واثقاً تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كُتبا لي[1]».

والعالم بأجمعه يعرف اليوم أن الذي كتب في قدر الجنرال الألماني العظيم كان هو الهزيمة والانتحار..

❖ ❖ ❖

وقد شاهدنا وقائع عديدة من هذه النبوءات المضحكة في «الهند».. فقد أعلن زعيم الشيوعيين: س. ب. جوشي، في المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الهندي، الذي انعقد في (مدوراى) بجنوب الهند، في يناير سنة 1954م، بأن الحزب الشيوعي سوف يحكم، مستقلاً بنفسه، في الانتخابات العامة القادمة، في ولايات: تراونكور-كوتشين (كيرالا)، ومدراس، وآندهرا، والبنغال الغربية، وآسام. وقد أجريت ثلاثة

(1) A study of history (Abridgment) P. 447.

انتخابات عامة (وانتخابات تكميلية أخرى) في هذه المدة الطويلة، ولم يستطع الحزب الشيوعي تأليف وزارة مستقلة في أية ولاية من ولايات الهند[1].

وسط هذه الجحافل من المتنبئين والنبوءات، لا نجد غير «القرآن» الذي تحققت نبوءاته حرفاً حرفاً، وهذا الواقع يكفي في ذاته لإثبات أن هذا الكلام صادر عن عقل وراء الطبيعة، يمسك بزمام الأحوال والحوادث، وهو على معرفة بكل ما سيحدث منذ الأزل إلى الأبد.

وسف نورد هنا خبرين من التنبؤات الكثيرة التي أدلى بها رسول الإسلام، وتحققت بكاملها، والشهادتان اللتان سنذكرهما، تتعلق إحداهما بغلبة الإسلام نفسه، على حين تتعلق بغلبة الروم مرة أخرى..

(أ) ـ عندما بدأ النبي ﷺ دعوته وقفت الجزيرة العربية كلها ضده، وكان على النبي مواجهة ثلاث جبهات في وقت واحد:

أولاها: القبائل المشركة، بعد أن أصبحوا أعداء حياته.

وثانيتها: الرأسمالية اليهودية.

وثالثتهما: أولئك المنافقون الذين تسربوا داخل المسلمين للقضاء على حركتهم، من داخل معاقلهم.

وكان الرسول يجاهد في سبيل رسالته السامية على كل هذه الجبهات: قوة المشركين، والرأسمالية اليهودية، والطابور الخامس. وقد وقف أمام هذا الطوفان الطاغي وقفات رائعة لا مثيل لها، ولم يسانده في مواقفه غير حفنة من المهاجرين والأنصار، وجماعة أسلمت من العبيد. ومما لا شك فيه أنه قد انضم إليه بعض كبار قريش، ولكن سرعان ما انقطعوا عن أهلهم وذويهم، وعادتهم قريش كمعاداتها للنبي.

---

(1) تمكن الحزب الشيوعي من تأليف وزارة ائتلافية في كيرالا، في الانتخابات العامة لسنة 1967، كما تمكنت «الجبهة المتحدة» في البنغال الغربية من تأليف وزارة ائتلافية في الانتخابات التكميلية التي أجريت في الولاية في 1969، ويتمتع الشيوعيون بالأغلبية في الجبهة المتحدة. ومعروف أن الشيوعيين لم يحصلوا على هذه المقاعد إلا بعد أن باعوا ضمائرهم إلى أسيادهم في بكين مقابل المساعدات المالية.

وقد سارت هذه الحركة بمكة قُدُماً، تكافح وتناضل، حتى أصبحت الأمور غاية في السوء، واضطر النبي وأصحابه أن يهاجروا إلى جهات مختلفة، حتى اجتمع شملهم في المدينة المنورة، وهم في أشد حالات العوز والفقر، بعدما تركوا ثرواتهم في مكة ـ موطنهم الأصلي. ويمكن قياس بؤس هؤلاء المهاجرين بتلك الجماعة التي عاشت في المسجد النبوي، حيث لم تكن لديهم بيوت، وكانوا ينامون على «صفّة» في فناء المسجد النبوي، فأطلق عليهم: «أهل الصُفَّة» ومما رويَ في كتب التاريخ أن تعداد هؤلاء الصحابة الكرام، الذين عاشوا على «الصفة»، بلغ في بعض الأحيان أربعمائة صحابي.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: رأيت سبعين من أهل الصُفَّة يصلون في ثوب، فمنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من هو أسفل من ذلك؛ فإذا ركع أحدهم قبض عليه، مخافة أن تبدو عورته..

وعنه (أبي هريرة) رضي الله عنه أنه قال: «لقد رأيتُني أُصْرَع بين منبر رسول الله ﷺ، وبين حجرة عائشة رضي الله تعالى عنها، فيقول الناس: إنه مجنون، وما بي جنون، ما بي إلا الجوع!».

❖ ❖ ❖

وفي هذه الحالة البائسة، حيث كان المسلمون في أسوأ أحوالهم؛ مكشوفين في عراء المدينة المنورة، خائفين، يترقبون الأعداء من كل جانب، مخافة أن يتخطفوهم في أي وقت؛ في هذه الحالة نجد القرآن يبشرهم مرة بعد أخرى:

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[1]

وقال أيضاً:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[2].

---

(1) المجادلة / 21.

(2) الصف/ 8 و9.

ولم تمض على هذه البشرى أيام طويلة، حتى وجد المسلمون الجزيرة العربية كلها تحت أقدامهم؛ فقد انتصرت أقلية ضئيلة لا تملك الخيول ولا الأسلحة، على أعداء يملكون الجيوش الكبيرة، والعدة، والعتاد.

وليس بوسعنا تفسير هذه التنبؤات في ضوء المصطلحات المادية، إلا أن نسلم بأن صاحب هذا الإخبار بالغيب لم يأت به من عند نفسه، وإنما كان خليفة عن الله؛ فلو أنه كان إنساناً عادياً لاستحال كل الاستحالة أن تصنع كلماته أقدار التاريخ. وكما قال البروفيسور (ستوبارت): «إنه لا يوجد مثال واحد في التاريخ الإنساني بأكمله يقارب شخصية محمد.».

وهو يضيف قائلاً:

«ألا.. ما أقل ما امتلكه من الوسائل المادية، وما أعظم ما جاء به من البطولات النادرة، ولو أننا درسنا التاريخ من هذه الناحية، فلن نجد فيه اسماً منيراً هذا النور، وواضحاً هذا الوضوح، غير اسم النبي العربي[1]».

إن هذا الأمر هو أعظم دليل على كونه ﷺ مرسلاً من لدن الحق تبارك وتعالى. وقد اعترف السير وليام ميور، ذلك العدو اللدود للإسلام، بهذا الأمر بطريقة غير مباشرة، حين قال:

«لقد دفن محمد مؤامرات أعدائه في التراب، وكان يثق بانتصاره ليل نهار، مع حفنة من الأنصار والأعوان، رغم أنه كان مكشوفاً عسكرياً من كل ناحية، وبعبارة أخرى: كان يعيش في عرين الأسد، ولكنه أظهر عزيمة جبارة، لا نجد لها نظيراً غير ما ذكر في الإنجيل، من أن نبياً قال لله تعالى: «لم يبق من قومي إلا أنا[2]!»

❖ ❖ ❖

ب ـ أما النبوءة الثانية التي وردت في القرآن، فهي الإخبار بغلبة الروم على الفرس. وقد جاء في أول سورة الروم قوله تعالى:

---

(1) Islam & Its Founder, p. 228.

(2) Life of Mohammad, p. 228.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾.

كانت الإمبراطورية الفارسية تقع شرقي الجزيرة العربية، على الساحل الآخر للخليج العربي، على حين كانت الإمبراطورية الرومانية تمتد من غربي الجزيرة على ساحل البحر الأحمر إلى ما فوق البحر الأسود. وقد سميت الأولى - أيضاً - بالإمبراطورية الساسانية، والأخرى بالبيزنطية. وكانت حدود الإمبراطوريتين تصل إلى الفرات ودجلة، في شمال الجزيرة العربية. وكانتا أقوى حكومتين شهدهما ذلك العصر.

ويبدأ تاريخ الإمبراطورية الرومانية - كما يرى المؤرخ «جبن» في القرن الثاني بعد الميلاد، وكانت تتمتع حينئذٍ بمكانتها كأرقى دولة حضارية في العالم.

وقد شغل المؤرخين تاريخ زوال الروم، كما لم يشغلهم زوال أية حضارة أخرى[1]. وليس يغني كتاب من الكتب التي ألفت حول هذا الموضوع عن الكتب الأخرى، ولكن يمكن اعتبار كتاب المؤرخ «إدوار جبن»: «تاريخ سقوط واندحار الإمبراطورية الرومانية»[2] أكثرها تفصيلاً وثقة، وقد ذكر المؤرخ في الجزء الخامس من كتابه الوقائع المتعلقة ببحثنا هنا.

❖ ❖ ❖

اعتنق الملك «قسطنطين» الدينَ المسيحي عام 325 م، وجعله ديانة البلاد الرسمية، فآمنت بها أكثرية رعايا الروم. وعلى الجانب الآخر، رفض الفرس - عباد الشمس - هذه الدعوة.

وكان الملك الذي تولى زمام الإمبراطورية الرومانية في أواخر القرن السابع الميلادي هو «موريس»، وكان ملكاً غافلاً عن شؤون البلاد والسياسة، ولذلك قاد

---

(1) Western Civilization, p. 210.

(2) The History of the Decline and of the Roman Empire, by Edward Gibbon.

جيشه ثورةً ضده، بقيادة «فوكاس» Phocas. وأصبح فوكاس ملكَ الروم، بعد نجاح الثورة، والقضاء على العائلة الملكية بطريقة وحشية؛ وأرسل سفيراً له إلى إمبراطور إيران «كسرى أبرويز الثاني»، وهو ابن «أنو شروان» العادل.

وكان «كسرى» هذا مخلصاً للملك «موريس»، إذ كان قد لجأ إليه عام 590 ـ 591م، بسبب مؤامرة داخلية في الإمبراطورية الفارسية، وقد عاونه «موريس» بجنوده لاستعادة العرش. مما يروى أيضاً أن «كسرى» تزوج بنت «موريس»، أثناء إقامته ببلاد الروم، ولذلك كان يدعوه «بالأب».

ولما عرف بأخبار انقلاب الروم، غضب غضباً شديداً، وأمر بسجن السفير الرومي، وأعلن عدم اعترافه بشرعية حكومة الروم الجديدة.

وأغار «كسرى أبرويز» على بلاد الروم، وزحفت جحافله عابرة نهر الفرات إلى الشام. ولم يتمكن «فوكاس» من مقاومة جيوش الفرس التي استولت على مدينتي «أنطاكية والقدس»، فاتسعت حدود الإمبراطورية الفارسية فجأة إلى وادي النيل. وكانت بعض الفرق المسيحية ـ كالنسطورية واليعقوبية ـ حاقدة على النظام الجديد في روما، فناصرت الفاتحين الجدد، وتبعها اليهود، مما سهل غلبةَ الفرس.

❖ ❖ ❖

وأرسل بعض أعيان الروم رسالة سرية إلى الحاكم الرومي في المستعمرات الإفريقية، يناشدونه إنقاذ الإمبراطورية، فأرسل الحاكم جيشاً كبيراً بقيادة ابنه الشاب «هرقل»، فسار بجيشه في الطريق البحرية، بسرية تامة.. حتى إن «فوكاس» لم يدر إلا عندما شاهد الأساطيل، وهي تقترب من السواحل الرومانية، واستطاع هرقل ـ دون مقاومة تذكر ـ أن يستولي على الإمبراطورية، وقَتَل «فوكاس» الخائن.

بيد أن هرقل لم يتمكن ـ برغم استيلائه على الإمبراطورية، وقتله «فوكاس» ـ من إيقاف طوفان الفرس.. فضاع من الروم كل ما ملكوا من البلاد في شرقي العاصمة وجنوبيها. ولم يَعُد العلم الصليبي يرفرف على العراق والشام وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى، بل علتْها راية الفرس: «دُرَفْشِ كاوياني» !! وتقلصت

الإمبراطورية الرومانية في عاصمتها، وسُدت جميع الطرق في حصار اقتصادي قاس؛ وعم القحط؛ وفشت الأمراض الوبائية؛ ولم يبق من الإمبراطورية غير جذور شجرها العملاق. وكان الشعب في العاصمة خائفاً يترقب ضرب الفرس للعاصمة، ودخولهم فيها؛ وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق، وكسدت التجارة؛ وتحولت معاهد العلم والثقافة إلى مقابر موحشة مهجورة.

وبدأ عباد النار يستبدون بالرعايا الروم، للقضاء على المسيحية.. فبدءوا يسخرون علانية من الشعائر الدينية المقدسة، ودمروا الكنائس، وأراقوا دماء ما يقرب من 100.000 من المسيحيين المسالمين، وأقاموا بيوت عبادة النار في كل مكان، وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار، واغتصبوا الصليب المقدس وأرسلوه إلى «المدائن».

ويقول المؤرخ «جبن» في المجلد الخامس من كتابه:

«ولو كانت نوايا «كسرى» طيبة، في حقيقة الأمر، لكان اصطلح مع الروم، بعد قتلهم «فوكاس»، ولاستقبل «هرقل» كخير صديق أخذ بثأر حليفه وصاحب نعمته «موريس»، بأحسن طريقة؛ ولكنه أبان عن نواياه الحقيقية عندما قرر مواصلة الحرب[1]».

ويمكن قياس الهوة الكبرى التي حدثت بين الروم والفرس من خطاب وجهه «كسرى» إلى «هرقل»، من بيت المقدس، قائلاً:

«من لدن الإله كسرى، الذي هو أكبر الآلهة، وملك الأرض كلها، إلى عبده اللئيم الغَافل: هرقل. إنك تقول: إنك تثق في إلهك! فلماذا لا ينقذ إلهك القدسَ من يديّ؟!».

واستبد اليأس والقنوط بهرقل من هذه الأحوال السيئة، وقرر العودة إلى قصره الواقع في «قرطاجنة» على الساحل الإفريقي.. فلم يعد يهمه أن يدافع عن الإمبراطورية، بل كان شغله الشاغل إنقاذ نفسه. وأُرسلت السفن الملكية إلى البحر، وخرج «هرقل» في طريقه ليستقل إحدى هذه السفن إلى منفاه الاختياري.

---

(1) كتاب جبن/ مجلد/ 5 ص 74.

وفي هذه الساعة الحرجة تحايل كبير أساقفة الروم باسم الدين والمسيح، ونجح في إقناع «هرقل» بالبقاء، وذهب «هرقل» مع الأسقف إلى قربان «سانت صوفيا» يعاهد الله تعالى على أنه لن يعيش أو يموت إلا مع الشعب الذي اختاره الله له.

وبإشارة من الجنرال الإيراني سين (Sain) أرسل «هرقل» سفيراً إلى «كسرى» طالباً منه الصلح؛ ولكن لم يكد القاصد الرومي يصل إلى القصر، حتى صاح «كسرى» في غضب شديد: «لا أريد هذا القاصد! وإنما أريد «هرقل» مكبلاً بالأغلال تحت عرشي؛ ولن أصالح «الرومي» حتى يهجر إلهه، الصليبي، ويعبد الشمس إلهتنا!»[1].

❖ ❖ ❖

وبعد مضي ستة أعوام على الحرب، رضي الإمبراطور الإيراني أن يصالح «هرقل» على شروط معينة، هي أن يدفع ملك الروم:

«ألف تالنْت[2]» من ذهب، وألف تالنت من الفضة، وألف ثوب[3] من الحرير، وألف جَواد، وألف فتاة عذراء».

ويصف «جبن» هذه الشروط بأنها «مخزية» دون شك، وكان من الممكن أن يقبلها «هرقل»، لولا المدة القصيرة التي أتيحت له لدفعها من المملكة المنهوبة، والمحدودة الأرجاء، ولذلك آثر أن يستعمل هذه الثروة، محاولةً أخيرة، ضد أعدائه.

❖ ❖ ❖

---

(1) (ص - 76 - ج 5).

(2) Talent، ميزان يوناني قديم، حوالي ستة وعشرين كيلو جراماً، لدى الأثينيين، وقد يطلق على كمية النقود الذهبية أو الفضية التي تزنه.

(3) الثوب: ثلاثون متراً من القماش تقريباً - المراجع.

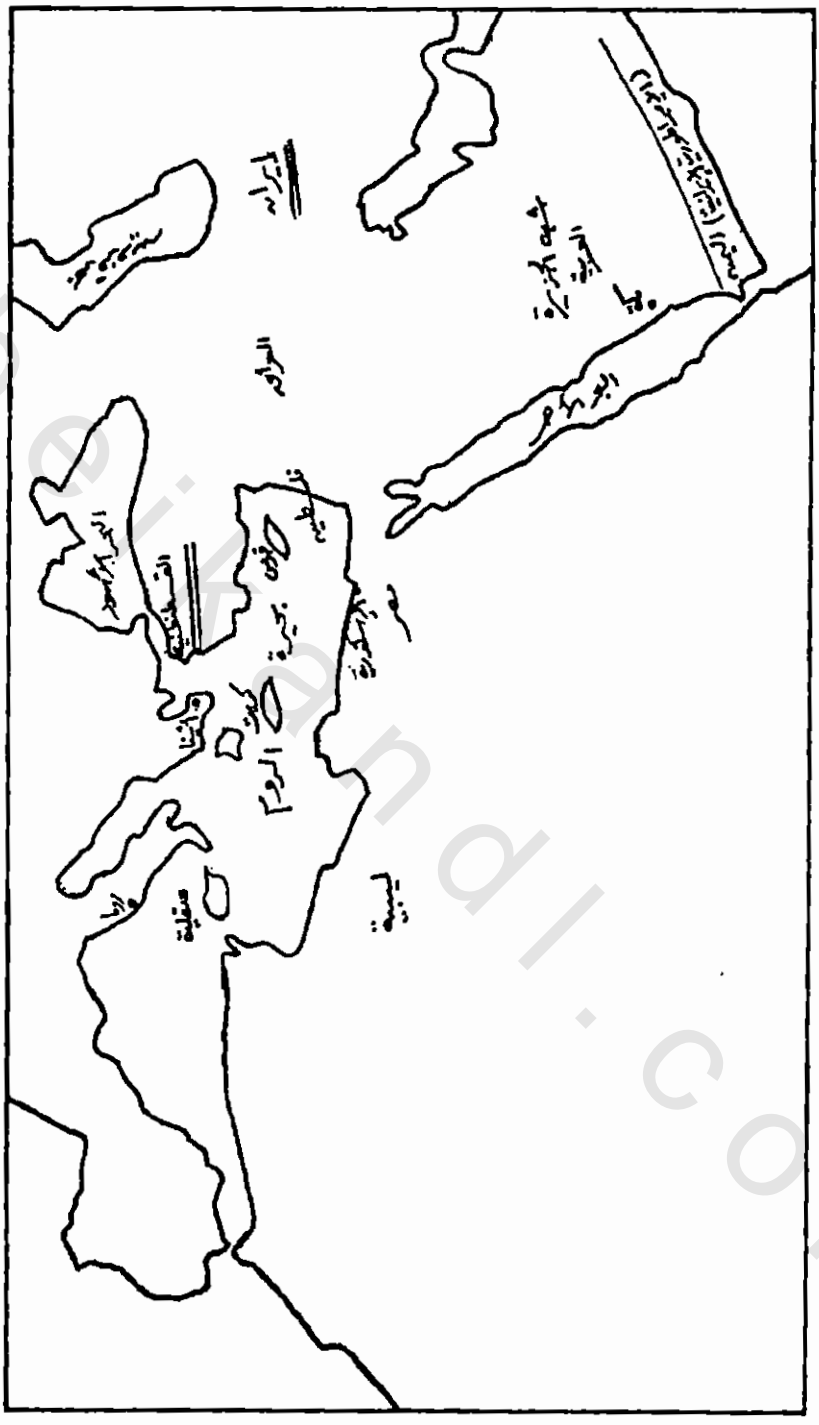

خريطة الإمبراطوريتين: الفارسية والرومانية

وبينما سيطرت على العاصمتين الفارسية والرومية هذه الأحداث، فقد سيطرت على شعب العاصمة المركزية في شبه الجزيرة العربية - وهي «مكة» المكرمة - مشكلة مماثلة: كان الفرس مجوساً، من عباد الشمس والنار، وكان الروم من المؤمنين بالمسيح، وبالوحي، وبالرسالة، وبالله تعالى. وكان المسلمون مع الروم - نفسياً - يرجون غلبهم على الكفار والمشركين، كما كان كفار مكة مع الفرس، لكونهم من عباد المظاهر المادية. وأصبح الصراع بين الفرس والروم رمزاً خارجياً للصراع الذي كان يدور بين أهل الإسلام وأهل الشرك في «مكة». وبطريقة نفسية كانت كل من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع الخارجي هي نفس مآل صراعها الداخلي. فلما انتصر الفرس على الروم عام 616 م، واستولوا على جميع المناطق الشرقية من دولة الروم، انتهزها المشركون فرصة للسخرية من المسلمين، قائلين: لقد غلب إخواننا إخوانكم، وكذلك سوف نقضي عليكم، إذا لم تصطلحوا معنا، تاركين دينكم الجديد!! وكان المسلمون بمكة في أضعف وأسوأ أحوالهم المادية، وفي تلك الحالة البائسة، صدرت كلمات من لسان الرسول ﷺ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ - الروم: 1 - 6. وتعليقاً على هذه النبوءة يكتب «جبن»:

«في ذلك الوقت، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً، لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكومة «هرقل» كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية[1]».

(1) ص - 74، المجلد 5.

ولكن من المعلوم أن هذه النبوءة جاءت من لدن من هو مهيمن على كل الوسائل والأحوال، ومن بيده قلوب الناس وأقدارهم، ولم يكد جبريل يبشّر النبي بهذه البشرى، حتى أخذ انقلاب يظهر على شاشة الإمبراطورية الرومانية!!.

يرويه «جبن» على النحو التالي:

«إنها من أبرز البطولات التاريخية، تلك التي نراها في «هرقل». فقد ظهر هذا الإمبراطور غاية في الكسل والتمتع بالملذات وعبادة الأوهام، في السنين الأولى والأخيرة من حكومته، كان يبدو كما لو كان متفرجاً أبله، استسلم لمصائب شعبه، ولكن الضباب الذي يسود السماء ساعتي الصباح والمساء، يغيب حيناً من الوقت لشدة شمس الظهيرة؛ وهذا هو ما حدث بالنسبة إلى هرقل، فقد تحول «أرقاديوس[1] القصور» إلى «قيصر ميدان الحرب[2]» فجأة، واستطاع أن يستعيد مجد الروم خلال ست حروب شجاعة شنّها ضد الفرس. وكان من واجب المؤرخين الروم أن يزيحوا الستار عن الحقيقة، تبياناً لأسرار هذه اليقظة والنوم، وبعد هذه القرون التي مضت يمكننا الحكم بأنه لم تكن هناك دوافع سياسية وراء هذه البطولة، بل كانت نتيجة غريزة هرقل الذاتية، فقد انقطع عن الملذات كافة، حتى إنه هجر ابنة أخته «مارتينا» - التي تزوجها لشدة هيامه بها، رغم أنها كانت محرمة عليه[3]».

❖ ❖ ❖

هرقل - ذلك الملك الغافل الفاقد العزيمة - وضع خطة عظيمة لقهر الفرس، وبدأ في تجهيز العدة والعتاد، ولكن رغم ذلك كله، عندما خرج هرقل مع جنوده، بدا لكثيرين من سكان «القسطنطينية» أنهم يرون آخر جيش في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية.

---

(1) أرقاديوس (377 - 408 م)، أحد أباطرة الرومان، وهو الابن الأكبر لتيودوس الأول، تولى العرش سنة 395 م. واشتهر بالجبن.

(2) قيصر أو «سيزار» (144 - 101 ق. م) قائد وسياسي رومي عظيم.

(3) ص - 77 - 76، المجلد الخامس.

وكان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة، ولذلك أعد بحريته للإغارة على الفرس من الخلف. وسار بجيوشه عن طريق البحر الأسود إلى «أرمينيا»، وشن على الفرس هجوماً مفاجئاً في نفس الميدان الذي هزم فيه الإسكندر جيوش الفرس، لما زحفَ على أراضي مصر والشام. ولم يستطع الفرس مقاومة هذه الغارة المفاجئة، فلاذوا بالفرار.

وكان الفرس يملكون جيشاً كبيراً في «آسيا الصغرى»، ولكن «هرقل» فاجأهم بأساطيله مرة أخرى، وأنزل بهم هزيمة فادحة، وبعد إحراز هذا النصر الكبير عاد «هرقل» إلى عاصمته «القسطنطينية» عن طريق البحر، وعقد معاهدة مع الأفاريين (Avars)، واستطاع بنصرتهم أن يسد سيل الفرس عند عاصمتهم.

وبعد الحربين اللتين مر ذكرهما شن هرقل ثلاث حروب أخرى ضد الفرس في سنوات 623 و 624 و 625 م. واستطاع أن ينفذ إلى أراضي العراق القديم (ميسوبوتانيا) عن طريق البحر الأسود، واضطر الفرس إلى الانسحاب من جميع الأراضي الرومية، نتيجة هذه الحروب، وأصبح «هرقل» في مركز يسمح له بالتوغل في قلب الإمبراطورية الفارسية، وكانت آخر هذه الحروب المصيرية ـ تلك الحرب التي خاضها الفريقان في «نينوا» على ضفاف «دجلة» في ديسمبر عام 627 م.

ولما لم يستطع «كسرى أبرويز» مقاومة سيل الروم، حاول الفرار من قصره الحبيب «دستگرد»، ولكن ثورة داخلية نشبت في الإمبراطورية، واعتقله ابنُه «شيرويه»، وزج به في سجن داخل القصر الملكي، حيث لقيَ حتفه، لسوء الأحوال، في اليوم الخامس من اعتقاله، وقد قتل ابنُه «شيرويه» ثمانية عشر ابناً من أبناء أبيه (كسرى) أمام عينيه.

ولكن «شيرويه» هو الآخر لم يستطع أن يجلس على العرش أكثر من ثمانية أشهر، حيث قتله أحد أشقائه، وهكذا بدأ القتال داخل البيت الملكي، وتولى تسعة ملوك زمام الحكم في غضون أربعة أعوام. ولم يكن من الممكن، أو المعقول، في هذه

الأحوال السيئة، أن يواصل الفرس حربهم ضد الروم. . فأرسل «قباد الثاني» ابن كسرى أبرويز الثاني يرجو الصلح، وأعلن تنازله عن الأراضي الرومية، كما أعاد الصليب المقدس، ورجع «هرقل» إلى عاصمته «القسطنطينية» في مارس عام 628 م، في احتفال رائع، كان يجرّ مركبته أربعة أفيال، واستقبلته آلاف مؤلفة من الجماهير، خارج العاصمة، وفي أيديهم المشاعل وأغصان الزيتون[1]!!.

وهكذا صَدَقَ ما تنبأ به القرآن الكريم من غلبة الروم في مدته المقررة، أي في أقل من عشر سنين، كما هو المراد في لغة العرب من كلمة: «بضع»!.

وقد أبدى «جبن» حيرته وإعجابه بهذه النبوءة، ولكنه كي يقلل من أهميتها ربطها برسالة النبي ﷺ إلى «كسرى».

يقول جبن:

«وعندما أتم الإمبراطور الفارسي نصره على الروم وصلتْه رسالة من مواطن خامل الذكر، من «مكة»؛ دعاه إلى الإيمان بمحمد، رسول الله، ولكنه رفض هذه الدعوة ومزّق الرسالة. وعندما بلغ هذا الخبرُ رسولَ العرب، قال: سوف يمزق الله دولتَه تمزيقاً، وسوف يقضي على قوته».

«ومحمد، الذي جلس في الشرق على حاشية الإمبراطوريتين العظيمتين، طار فرحاً، مما سمع عن تصارع الإمبراطوريتين وقتالهما، وجرؤ في إبان الفتوحات الفارسية وبلوغها القمة، أن يتنبأ بأن الغلبة سوف تكون لراية الروم بعد بضع سنين. وفي ذلك الوقت، حين ساق الرجل هذه النبوءة، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً، لأن الأعوام الاثني عشر الأولى من حكومة هرقل كانت تشي بنهاية الإمبراطورية الرومانية[2]».

بيد أن جميع مؤرخي الإسلام يعرفون معرفة تامة أن هذه النبوءة لا علاقة لها بالرسالة التي وجهها النبي إلى «كسرى أبرويز»، لأن تلك الرسالة إنما أرسلت في

---

(1) جبن: ص ـ 94، ج ـ 5.

(2) المرجع السابق، 74 ـ 73.

العام السابع من الهجرة، بعد صلح الحديبية، أي سنة 628 م، في حين أن آية النبوءة المذكورة نزلت بمكة عام 616، أي قبل الهجرة بوقت طويل، فبين الحدثين فاصل يبلغ اثني عشر عاماً[1].

❖ ❖ ❖

ثالثاً: القرآن و الكشوف الحديثة:

والميزة الثالثة التي سوف أدرسها في هذا الباب، للإبانة عن صدق القرآن وحقيته، هي أنه رغم نزول القرآن قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة، لم يتمكن أحدٌ من إثبات أية أخطاء علمية فيه، ولو أنه كان كلاماً بشرياً لكان هذا ضرباً من المستحيل.

❖ ❖ ❖

كانت بعثة لطلبة الصين تدرس بجامعة كاليفورنيا، منذ بضع سنين، وقد ذهب اثنا عشر من هؤلاء الطلبة إلى كاهن «كنيسة بركلى» طالبين منه أن ينظم لهم دراسة حول الدين المسيحي في أيام الأحد، وقالو له بكل صراحة: إننا غير راغبين في اعتناق المسيحية، ولكننا نريد أن نعرف مدى تأثير هذا الدين على الحضارة الأمريكية، واختار القسيس عالماً في الرياضة والفلك، هو البروفيسور «بيتر و. ستونر»، للتدريس لهؤلاء الشبان. وبعد أربعة أشهر من هذا الواقع اعتنقوا الدين المسيحي!!.

أما الدوافع وراء هذا العمل المدهش، فلنسمعها من الأستاذ نفسه:

«لقد كان السؤال الأول أمامي: ماذا أقول لهم عن الدين؟. إنهم لا يؤمنون بالإنجيل إطلاقاً، وتدريس الإنجيل على الطريقة التقليدية لن يأتي بفائدة ما، وفي ذلك الوقت تذكرت أني أثناء دراستي كنت ألاحظ علاقة كبيرة بين العلوم الحديثة وسفر التكوين في الإنجيل؛ ولذلك رأيت أن أعرض هذا الكلام أمام هذه الجماعة من الشباب».

---

(1) انظر: Encyclopaedia of Religion and Ethics ج 10 / 540 - 545.

«وكنا ـ أنا والطلبة ـ نعرف بطبيعة الحال أن ما جاء في هذا الكتاب عن بدء الكون قد كُتب قبل آلاف السنين من كشوف العلوم الحديثة عن الأرض والسماء، وكنا نشعر كذلك أن أفكار الناس في زمن موسى ستبدو لغواً باطلاً، لو درسناها في ضوء معلومات العصر الحاضر.»

«وقد أمضينا فترة الشتاء كلها ندرس في سفر التكوين، وكان الطلبة يكتبون الأسئلة حول ما جاء في هذا السفر التكوين، ثم يبحثون عن أجوبتها بكل جهد في مكتبة الجامعة. وعند انتهاء الشتاء أخبرني القسيس أن الطلبة حضروا إليه ليخبروه أنهم يريدون اعتناق المسيحية، وقد أقروا أنه ثبت لهم أن الإنجيل كتاب موحى من عند الله[1]».

❖ ❖ ❖

وعلى سبيل المثال يقول سفر التكوين عن حالة الأرض في بداية الأمر: «لقد غشى على الأغوار ظلام[2]» وهذا هو أحسن تصوير للحالة التي وجدت في الأرض في ذلك الوقت، كما عرفناها من العلوم الحديثة، فكان سطح الأرض حاراً جداً، وتبخرت المياه بسبب هذه الحرارة، ولم يصل النور إلى سطح الأرض، لأن مياه بحارنا كانت معلقة في صورة سحب كثيفة، في الفضاء، وكان ظلام حالك يسود الأرض.

إننا نؤمن بأن الإنجيل والتوراة من الكتب الإلهية، مثل القرآن الكريم، ولذلك توجد فيهما قبسات من العلم الإلهي، ولكن النصوص الأصلية قد ضاعت، وطرأ فارق كبير بين الإنجيل الحقيقي وإنجيل هذا العصر، بعد مضي ألفي عام حافلة بعمليات الترجمة من لغة إلى أخرى، ثم بأعمال التحريف البشري Human

---

(1) The Evidence of God, pp. 137 - 38.

(2) تقول الترجمة العربية للتوارة (المنقولة عن اليونانية): «وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة.» الإصحاح: 1 ـ (المراجع).

Interpolation الذي أصاب النسخة الإلهية، أكثر ما أصاب، على حد تعبير العالم الأمريكي «كريسي موريسون[1]».

ولما كانت هذه الصحائف قد فقدت قيمتها، نتيجة لما حدث، فقد أرسل الله تعالى «طبعة جديدة» من كتابه إلى البشر، وهذا الكتاب هو «القرآن الكريم»، وهو يحمل، من أجل صحته وكماله، كل الميزات والخصائص التي لا توجد منها سوى لمحات في الكتب القديمة.

وسوف أستعرض هنا هذه الخاصة دليلاً ثالثاً من أدلتي على صدق القرآن الكريم، ولقد أنزل القرآن قبل عصر النهضة، ولكن أحداً من الناس لم يستطع إبطال شيء مما جاء به، ولو كان هذا القرآن من كلام البشر، لَعُدّ ذلك ضرباً من ضروب الإحالة.

❖ ❖ ❖

نزل القرآن في عصر لم يكن الإنسان يعرف فيه عن الطبيعة إلا القليل النادر، وكانوا يرون أن الأمطار تنزل من السماء؛ وأن الأرض مستوية، كالفراش؛ وأن السماء سقف الأرض؛ وكانوا يرون أن النجوم مسامير لامعة من الفضة مركبة في قبة السماء، أو أنها قناديل معلقة في الفضاء! وكان أهل الهند الأقدمون يؤمنون بأن الأرض محمولة على أحد قرني «البقرة الأم»، وهي حين تقوم بنقل الأرض من قرن إلى آخر يحدث زلزال على البسيطة[2]. وكان العلماء يرون أن الشمس ساكنة بلا حراك، وأن الأرض تدور حولها، إلى أن جاء «كوبرنيك» 1473 ـ 1543م وعرض فكرته الشهيرة عن حركة الشمس.

❖ ❖ ❖

---

(1) Man does not Stand Alone, p. 120، ومن الثابت أن الأناجيل لم تكتب في حياة المسيح، ولا حتى بعد وفاته بنصف قرن كما أن التوراة آخر ما كتب من عصر السبي البابلي (586 ـ 538 ق. م).

(2) شاعت هذه العقيدة الخرافية كذلك في أوساط العوام وأشباه المتعلمين في شرقنا العربي، وإن كان تيار المعرفة العامة الآن يقضي على مثل هذه الخرافات ـ المراجع.

وهكذا تقدم العلم رويداً رويدا، إلى أن زادت قوة المشاهدة والدراسة لدى الإنسان، فكشف عن أسرار كثيرة. والآن لا نجد جزءاً ما من معلوماتنا عن أجزاء الجسم، وشعب العلم المختلفة، إلا وقد تغيرت نظرتنا إليه كلية، وثبت بطلان العصر القديم.

ويدل هذا بكل صراحة على أنه لا وجود لكلام إنساني تدوم صحته كلياً. لأن الإنسان يتكلم عما هو معروف من المعتقدات والعلوم في عصره؛ إنه سوف يسرد ما وجده في زمنه؛ سواء وقع كلامه في دائرة الشعور أو اللاشعور. ولذلك لا نجد كتاباً مضى عليه حين من الدهر إلا وهو مملوء بالأغلاط والأخطاء من سائر نواحيه، نظراً إلى الكشوف الجديدة في كل الميادين.

ولكن مسألة القرآن الكريم تختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلية! فهو حق وصادق في كل ما قال، كما كان في القرون الغابرة. ولم يطرأ على مقاله أي تغير رغم مضي قرون وعصور طويلة. وهذا في نفسه دليل على أن منبعه عقل جبار يحيط بالأزل وبالأبد علماً؛ وهو يعلم سائر الحقائق في صورها النهائية والحقيقية؛ ولا يخضع علمه ومعرفته لحواجز الزمان والمكان والأحوال. ولو كان هذا الكلام صادراً عن بشر محدودي النظر والعلم لكان الزمان قد أبطله منذ عصور عديدة، كما يحدث لكل كلام إنساني في مستقبله.

إن المحور الحقيقي لرسالة القرآن هو السعادة الأخروية، فهو لا يدخل في دائرة أي من علومنا وفنوننا الحديثة. ولكن حيث إنه يخاطب «الإنسان» في حقيقة الأمر، فهو يمس كل ما هو متعلق بالإنسان، وهي مسألة دقيقة، وموقف جد خطير.. لأن المرء حين يكون جاهلاً، أو ناقص المعلومات حول مشكلة ما، ثم يتجرأ ليتكلم عن تلك المشكلة - ولو إجمالاً - فلا بد أن يكبو في حديثه، وذلك حين يستخدم كلمات أو عبارات لا علاقة لها بالواقع والحقائق!.

وعلى سبيل المثال: قال أرسطو، استدلالاً على أسبقية الرجل على المرأة: إن فم المرأة يحوي أسناناً أقل عدداً من أسنان الرجل!! ومن المعروف أن هذا الكلام لا علاقة له بعلم الأجسام، بل هو يدل على أن صاحبه جاهل بهذا العلم، فإن عدد

الأسنان سواء لدى الرجل والمرأة. ولكن من المدهش حقاً أن القرآن ـ حتى فيما يمس أكثرَ العلوم الحديثة من ناحية أو أخرى ـ لا يحتوي كلمة ما، أثبت العلم فيما بعد، أنها من صنع رجل جاهل بذلك الموضوع، وهذا يوضح صراحة أنه كلامُ موجود فوق الطبيعة؛ وهو على معرفة تامة بكل شيء، على حين لم يكن أحدٌ يعلم شيئاً، وهو يعلم أيضاً كل ما يجهله البشر في هذا العصر، مع تقدم العلوم..

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة التي تدل صراحة على أن القرآن الكريم يحيط بالحقائق التي لم تُعرفْ إلا في عصرنا هذا، وإن كانت إحاطته هذه ضمن إشارات غير مقصودة لذاتها.

ويجب أن أقول، تمهيداً لهذا البحث: إن مطابقة كلمات «القرآن» وألفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن أسرار الواقعة موضوع البحث، فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير الإشارات القرآنية في ذلك الموضوع. ولو أن دراسة المستقبل في موضوعٍ ما تُبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كلياً أو جزئياً فليس هذا بضائر مطلقاً صدقَ القرآن، بل معناه أن المفسّرَ أخطأ في محاولته لتفسير إشارة مجملة في القرآن، وإنني لعلى يقين راسخ بأن الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر إيضاحاً لإشارات القرآن، وأكثر بياناً لمعانيه الكامنة.

❖ ❖ ❖

تقسيم لآيات القرآن:

ونستطيع أن نقسم الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الجانب إلى نوعين:

الأول: ما عرف عنه الإنسان ـ حتى ذلك العصر ـ أموراً جانبية وسطحية.

والثاني: ما لم يعرف عنه ذلك الإنسان شيئاً مطلقاً.

إن هناك أشياء كثيرة كان الأقدمون يعرفون عنها بعض المعارف الجزئية، وكانت معرفتهم هذه ناقصة جداً بالنسبة إلى المعرفة التي أتيحت للإنسان اليوم، بفضل الاختراعات الحديثة. وقد واجه القرآن في هذا الصدد مشكلة كبرى، فهو لم يكن كتاباً في العلوم والهندسة، ولذلك لو أنه كان بدأ يكشف عن أسرار الطبيعة لاختلف الناس فيما بينهم حول ما جاء في القرآن، ولاستحال عندئذ بلوغ الهدف

الحقيقي من نزول القرآن، وهو إصلاح العقل الإنساني وتزكيته. فمن إعجاز القرآن أنه تكلم في لغة العلم، قبل كشفه، كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم تستوحشها أذواق الأقدمين ولا معارفهم، على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث!

النوع الأول

(ا) ذكر القرآن الكريم قانوناً خاصاً بالماء في سورتين: هما الفرقان والرحمن. وجاء في السورة الأولى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾[1]. وأما الآية التي وردت في السورة الأخرى فهي تقول:

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾[2].

إن الظاهرة الطبيعية التي يذكرها القرآن في هذه الآيات معروفة عند الإنسان منذ أقدم العصور؛ وهي أنه إذا ما التقى نهران في ممر مائي واحد فماء أحدهما لا يدخل (أي لا يذوب) في الآخر. وهناك، على سبيل المثال، نهران يسيران في «تشاتغام» بباكستان الشرقية إلى مدينة «أرْكانْ»، في «بورما»، ويمكن مشاهدة النهرين، مستقلاً أحدهما عن الآخر، ويبدو أن خيطاً يمر بينهما، حداً فاصلاً؛ والماء عذب في جانب، وملح في جانب آخر. وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل، فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث «المد البحري»، ولكنهما لا يختلطان، ويبقى الماء عذباً تحت الماء الأجاج. وهكذا شاهدتُ عند ملتقى نهري الكنج والجامونا، في مدينة «الله آباد»، فهما رغم التقائهما لم تختلط مياههما، ويبدو أن خيطاً فاصلاً يميز أحدهما من الآخر[3].

إن هذه الظاهرة، كما قلتُ، كانت معروفة لدى الإنسان القديم.. ولكنا لم نكشف قانونها إلا منذ بضع عشرات من السنين. فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانوناً ضابطاً للأشياء السائلة، يسمى «قانون المطّ السطحي» Surface Tension، وهو يفصل بين السائلين؛ لأن «تجاذب» الجزئيات يختلف من سائل

---

(1) الفرقان/ 53.

(2) الرحمن/ 19 ـ 20.

(3) وهو ما كان يشاهد عند التقاء النيل بالبحر الأبيض، قبل بناء السد العالي. (المراجع).

لآخر، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله. وقد استفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون، الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه: «بينهما برزخ لا يبغيان». وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء، كما لم تتعارض مع المشاهدة الحديثة، ونستطيع، بكل ثقة، أن نقول: إن المراد من «البرزخ» إنما هو «المط أو التمدد السطحي»، الذي يوجد في الماءين، والذي يفصل أحدهما عن الآخر.

ويمكن فهم هذا المط السطحي بمثال بسيط، وهو: أنك لو ملأت كوباً بالماء، فإنه لن يفيض إلا إذا ارتفع عن سطح الكوب قدراً معيناً. والسبب في ذلك أن «جزئيات» السوائل عندما لا تجد شيئاً تتصل به فوق سطح الكوب، تتحول إلى ما هو تحتها، وعندئذ توجد «غشاوة مَرِنة» Elastic Film على سطح الماء؛ وهذه الغشاوة هي التي تمنع الماء من الخروج عن الكوب لمسافة معينة، وهي غشاوة قوية لدرجة أنك لو وضعت عليها إبرة من حديد فإنها لن تغوص! وهذه الظاهرة هي ما يسمى بالمط السطحي، الذي يحول دون اختلاط الماء والزيت، والذي يفصل بين الماء العذب والملح.

❖ ❖ ❖

(ب) وجاءت في القرآن بيانات مماثلة، وعلى سبيل المثال:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[1].

وهذه الآية مطابقة لما كان يراه الرجل القديم؛ فإنه كان يشاهد عالماً كبيراً قائماً بذاته في الفضاء، مكوناً من الشمس والقمر والنجوم، ولكنه لم ير لها أيّة سواريات أو أعمدة، والرجل الجديد يجد في هذه الآية تفسيراً لمشاهدته، التي تثبت أن الأجرام السماوية قائمة دون عَمَد في الفضاء اللانهائي، بيد أن هنالك «عمداً غير مرئية»؛ تتمثل في قانون «الجَاذبية» Gravitation Pull؛ وهي التي تساعد كل هذه الأجرام على البقاء في أمكنتها المحددة.

❖ ❖ ❖

(ج) وقد قال القرآن عن الشمس والنجوم:

---

(1) الرعد/ 2.

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] وكان الإنسان في العصر الغابر يشاهد أن النجوم تتحرك وتبتعد عن أمكنتها بعد وقت معين. ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآني موضع دهشتهم واستغرابهم، ولكن البحوث الحديثة قد خلعت على هذه التعبيرات ثوباً جديداً؛ فليس هنالك تعبير أروع ولا أدق من «السباحة» لدوران الأجرام السماوية في الفضاء البسيط اللطيف!.

❖ ❖ ❖

(د) وقال القرآن الكريم عن الليل والنهار:

﴿ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾[2].

إن هذه الآية الكريمة تشرح للإنسان القديم سّر مجيء الليل بعد النهار.. ولكنها تحوي إشارة رائعة إلى دوران الأرض محورياً، وهو الدوران الذي يُعتبر سبب مجيء الليل والنهار، طبقاً لمعلوماتنا الحديثة.

وسوف أذكّر القراء ـ هنا ـ بأن من بين المشاهدات التي أدلى بها رجل الفضاء الروسي «جاجارين»، بعد دورانه في الفضاء حول الأرض: أنه شاهد «تعاقباً سريعاً Rapid Succession للظلام والنور على سطح الأرض بسبب دورانها المحوري حول الشمس».

وهناك بيانات كثيرة جداً من هذا القبيل في القرآن الكريم..

❖ ❖ ❖

النوع الثاني من الآيات:

وأما النوع الثاني من الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع، فلم يعرف عنها الرجل القديم شيئاً ما على الإطلاق. وقد تناول القرآن تلك الموضوعات، كاشفاً الغطاء عن أسرار بالغة الأهمية، ثبت صدقها بعد الدراسات الحديثة، وسوف أعرض في الصفحات التالية بعض الأمثلة من مختلف فروع العلوم الحديثة.

---

(1) يس/ 40.

(2) الأعراف/ 54.

أولاً: علم الفلك:

يطرح القرآن الكريم فكرة معينة ومحدودة المعالم حول بداية الكون المادي ونهايته، وكانت هذه الفكرة غير معروفة لدى الإنسان الجديد قبل قرن من الزمان. أما الإنسان القديم فلا مجال للقول بأنه كان من الممكن أن يتطرق عقله الصغير إلى هذه الفكرة أو أجزائها، وجاء العلم الجديد ليشهد على ما جاء في القرآن الكريم.

يعبر القرآن عن بداية الكون على النحو التالي:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾[1].

أما عن نهاية الكون، فيقول:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[2].

فالكون، بناء على تفسير هذه الآيات كان منضماً ومتماسكاً (الرتق: مُنْضَمّ الأجزاء)، ثم بدأ يتمدد في الفضاء، ويمكن رغم هذا التمدد تجميعه مرة أخرى في حيز صغير.

وهذه هي الفكرة العلمية الجديدة عن الكون؛ فقد توصل العلماء، خلال أبحاثهم ومشاهداتهم لمظاهر الكون، إلى أن «المادة» كانت جامدة وساكنة في أول الأمر؛ وكانت في صورة غاز ساخن، كثيف، متماسك. وقد حدث انفجار شديد في هذه المادة قبل 5.000.000.000 سنة على الأقل، فبدأت المادة تتمدد وتتباعد أطرافها. ونتيجة لهذا أصبح تحرك المادة أمراً حتمياً، لا بد من استمراره، طبقاً لقوانين الطبيعة، التي تقول: إن قوة «الجاذبية» في هذه الأجزاء من المادة تقل تدريجياً بسبب تباعدها (ومن ثم تتسع المسافة بينها بصورة ملحوظة).

ويعتقد العلماء أنَّ دائرة المادة كانت 1.000 مليون سنة ضوئية، في أول الأمر.

---

(1) الأنبياء/ 30.

(2) الأنبياء/ 104.

وقد أصبحت هذه الدائرة الآن، كما يقول البروفيسور «إيدنجتون»: عشرة أمثال بالنسبة إلى الدائرة الحقيقية. وهذه العملية من التوسع والامتداد مستمرة دونما توقف. وكما يقول البروفيسور «إيدنجتون»:

«إن مثال النجوم والمجرات: كنقوش مطبوعة على سطح بالون من المطاط، وهو ينتفخ باستمرار؛ وهكذا تتباعد جميع الكرات الفضائية عن أخواتها، بحركاتها الذاتية، في عملية التوسع الكوني[1]».

وأما الأمر الآخر، فقد ثبت لنا صدقه، كما ورد في القرآن. فكان الإنسان القديم يرى أن النجوم يبتعد بعضها عن بعض رأيَ العين؛ ولكننا نراها متقاربة لبعدها الهائل عن الأرض، وهي، في حقيقة الأمر، متباعدة بمسافات قياسية.

ولم يقف الأمر بنا عند هذا الحد، بل عرفنا أيضاً أن تلك الأجسام والأجرام التي كنا نشاهدها في قديم الزمن، وكنا نحسبها كاملة وسالمة، أكثرها يحتوي على فضاء خالٍ. قد عرفنا أن كل جسم مادي يدور حول نظام له، مثل النظام الشمسي الذي تدور حوله نجوم وسيارات كثيرة. ومن أمثلته نظام «الذرة». فنحن نشاهد الفضاء الخالي في «النظام الشمسي»، ولكننا نعجز عن مشاهدة فضاء «النظام النووي» لصغر حجمه المتناهي.. حتى إنه يستحيل مجرد مشاهدة هذا النظام[2]. ومعنى ذلك أن كل شيء - حتى لو بدا متماسكاً - يحوي حيزاً من الفضاء في داخله. ومثاله: أننا لو جردنا الفضاء أو المكان Space من الذرات المادية في الجسم الإنساني، ذات الستة الأمتار، فلن نجد إلا كمية قليلة جداً من المادة، تكاد تكون متناهية الوجود.

وهكذا يرى علماء الطبيعة الفلكية (Astro - Physicists) أننا لو طوينا كل شيء في الكون بدون أن نترك للفضاء مكاناً، فسيكون حجم الكون كله ثلاثين ضعفاً من حجم الشمس!! ويمكن قياس سعة الكون من أن أبعد مجرة استطاع الإنسان الكشف عنها تبعد بضعة ملايين من السنين الضوئية عن النظام الشمسي.

---

(1) The Limitations of Science, p. 20.

(2) انظر التفصيلات عن «الذرة» في الباب الرابع من هذا الكتاب.

3 ـ لقد توصل العلماء، خلال أبحاثهم، إلى أنه لا بد في المستقبل القريب ـ وطبقاً لقانون دوران الأجرام السماوية ـ أن يقترب القمر من الأرض، حتى ينشق من شدة الجاذبية، وتتناثر أجزاؤه في الفضاء[1]. وسوف تحدث عملية انشقاق القمر هذه بناء على نفس القانون الذي يحكم المد والجزر في البحار. فالقمر هو أقرب جيراننا في الفضاء، ولا يبعد عن الأرض غير 240.000 ميل، وهذا القربُ يؤثر على البحار مرتين يومياً، حيث ترتفع فيها أحياناً أمواج يبلغ طولها ستين متراً، وأما تأثير هذه الجاذبية على سطح الأرض فيبلغ عدة بوصات!!.

إن المسافة الفاصلة بين الأرض والقمر مناسبة تماماً لصالح أهل الأرض. ولو نقص هذا الفاصل إلى خمسين ألفاً من الأميال ـ على سبيل المثال ـ فسوف يحدث طوفان شديد في البحار، وسوف تغطي أمواجها أكثر مناطق الأرض المأهولة، وسوف يغرق كل شيء، حتى لتتحطم الجبال من شدة تموج البحار، وسوف تحدث شقوق مروعة على سطح الأرض من وطأة الجاذبية!!.

ويرى علماء الفلك أيضاً أن الأرض قد مرت بكل هذه الأدوار أثناء عملية التكوين، حتى وصلت إلى بعدها الحالي من القمر، بناء على قانون الفلك، وهذا القانون هو نفسه سوف يأتي بالقمر قريباً من الأرض مرة أخرى.. ويرون أن من المتوقع حدوث هذا قبل بليون سنة[2]. وعندئذ سوف ينشق القمر، وسوف يتناثر حول فضاء الأرض في صورة حلقة.

أليست هذه النظرية من أعظم موافقات العلم لتلك النبوءة الواردة في القرآن الكريم، حول انشقاق القمر، حين تقترب القيامة[3]؟.

---

(1) Man Does Not Stand Alone, p. 24.

(2) هذا مجرد تعبير عن الإمكان العلمي، وحدوده الزمنية. وليس ببعيد أن تقع هذه الظاهرة في وقت أقل مما حدده الفلكيون، وكلامهم لا ينفي هذا.

(3) رويت معجزة «انشقاق القمر» في الصحيحين وكتب الحديث الأخرى، بروايات صحيحة الإسناد، ومنها ما رواه عبد الله بن مسعود (رضي الله تعالى عنه)، وهو من الشهود العيان لذلك الحادث الخارق؛ وبرغم ذلك لا تزال مسألة «انشقاق القمر» موضع خلاف شديد بين المفسرين والعلماء. فيرى الجمهور أنه قد حدث فعلاً، «.. وقال بعض المفسرين: سينشق» كما يرى صاحب التفسير =

اقرأوا قوله تعالى:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[1].

ثانياً: علم طبقات الأرض:

1 ـ جاء في القرآن الكريم، غير مرة، أن الجبال أرسيت في الأرض حفاظاً على توازنها، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[2].

ولقد ظل العلم الحديث جاهلاً بهذه الحقيقة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية، ولكن دارسي الجغرافيا الحديثة يعرفونها جيداً تحت اسم «قانون التوازن»Isostasy. ولا يزال العلم الحديث في مراحله البدائية بالنسبة إلى أسرار هذا القانون، ويقول الأستاذ إنْجلنْ:

«من المفهوم الآن أن المادة ـ الأقل وزناً ـ ارتفعت على سطح الأرض، على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية، وهي التي نراها الآن في شكل البحار. وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظا على توازن الأرض[3]».

ويرى عالم آخر من باحثي الجغرافيا:

= «الكبير»، ومن القائلين به الإمام الحسن البصري، وقد نقل عنه أبو حيان الأندلسي القول التالي: «إن المعنى إذا جاءت الساعة انشق القمر بعد النفخة الثانية». ـ البحر المحيط، ج ـ 8، ص ـ 173. وهناك فئة ثالثة من العلماء تؤثر «التوفيق» بين الرأيين، فهم يرون أن معجزة شق القمر، التي جاء ذكرها في الأحاديث وقعت أمام جمع من المسلمين والمشركين «بمنى» في مكة المكرمة، ويرى الإمام الغزالي والشاه ولي الله الدهلوي أنها وقعت «بتصرف البصر». ومن الممكن أن تكون قد حدثت فعلاً نتيجة انشقاق فلكي. وهكذا ستكون الواقعة الأولى آية أولية للأحداث التي سوف يجري وقوعها قرب القيامة. وفيها يقول المفسر الهندي الكبير العلامة شبير أحمد العثماني في تفسيره للقرآن:

«لقد كانت معجزة شق القمر مثالاً على أن كل شيء سينشق هكذا عند اقتراب القيامة».

(1) القمر/ 1 و2.

(2) لقمان / 10.

(3) C.R. Von Anglen. Geomorphology, p. 26 - 27. New York, 1948.

«وفي البحار، أيضاً، توجد وديان البر. ولكن وديان البحر أكثر غوراً وأبعد عمقاً من تلك التي توجد في البر؛ كما أنها بعيدة عن المجال التجريبي للإنسان.» ويبدو أنه قد حدثت مغارات عميقة في البحار. (ويبلغ عمق بعض هذه الوديان 35 ألف قدم عن سطح البحر؛ وهذا العمق أعلى من أعظم جبال العالم ارتفاعاً. ويبلغ من عمق هذه الوديان البحرية أحياناً أنه لو وضعت فيها قمة «إيفرست»، من سلسلة جبال «الهملايا»، والتي يبلغ طولها 002. 29، فسيكون سطح البحر فوقها بمسافة ميل كامل!).

«ومن الظواهر المحيّرة أن هذه الخنادق البحرية توجد قرب السواحل البرية بدلَ أن توجد في أعالي البحار. ومَن ذا يستطيع أن يعلم قدرَ ذلكم الضغط الهائل، الذي أحدث هذه المغارات السحيقة في قاع البحار. ولكن قرب هذه الوديان من الجزر والبراكين يدل على أن هناك علاقة بين طول الجبال والخنادق البحرية.. وهو أن الأرض يقوم توازنها على أساس الارتفاع والعمق (في أجزائها المختلفة). ويرى بعض كبار علماء الجغرافيا أنه من الممكن أن تكون الأغوار البحرية علامات على جزر قد تظهر في المستقبل. وسببه أن الرواسب والمخلفات لكل من البر والبحر تترسب في الوديان، وقد سوِّيتْ مناطق كبيرةٌ من هذه الوديان بعد أن ملأتها هذه الرواسب. ولهذا من الممكن ـ بناء على عدم التوازن الذي يحدث عن هذه العملية ـ أن تبرز جبال جديدة في أي وقت، أو تظهر سلسلة جديدة من الجزر، ومما يؤكد ذلك أنه قد وُجدت آثار الرواسب البحرية في بعض الجبال الساحلية.

وعلى كل حال، لا توجد نظرية ـ في ضوء المعلومات الحالية للإنسان ـ لتقوم بتفسير الوديان البحرية، وهذه المغارات الدائمة البرودة، والتي توجد في ظلام حالك، وتحت ضغط قدره سبعة أطنان على كل بوصة ـ لا زال ذلك كله لغزاً أمام الإنسان، كألغاز البحر الأخرى[1]!».

2 ـ وقد جاء في القرآن الكريم أنه قد مضى على الأرض زمن طويل سواها الله خلاله؛ قال تعالى:

---

(1) The World We Live in. New York. 1955.

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾[1].

وهذه الآية الكريمة تطابق مطابقة عجيبة أحدث الكشوف العلمية؛ وهو: «نظرية تباعد القارات» أو انتشارها (Theory of Drifting Continents). ومغزى هذه النظرية: أن جميع القارات كانت في وقت من الأوقات أجزاءً متصلة، ثم انشقت وبدأت «تنقذف»، أو تنتشر من تلقاء نفسها، وهكذا وجدت قارات تحول دونها بحار واسعة.

وقد طُرحت هذه النظرية في العالم عام 1915، لأول مرة، حين أعلن خبير طبقات الأرض الألماني الأستاذ «الفريد واجنر» أنه لو قُرّبت القارات جميعاً، فسوف تتماسك ببعضها، كما يحدث في ألعاب الألغاز التي تسمىّ Jigsaw Puzzle. ويمكن مشاهدتها في الأشكال الثلاثة، التي تبين هذه النظرية (انظر ص167).

❖ ❖ ❖

وهناك شبه كبير يوجد على سواحل البحار المختلفة، كأن نجد جبالاً متماثلة عمرها الأرضي (واحد)؛ وكأن نجد فيها دوابَّ وأسماكاً ونباتات متماثلة أيضاً! وهذا هو ما دفع عالم النباتات البروفيسور رونالد جود (Ronald Good) في كتابه: جغرافية نباتات الزهور (Geography of Flowering Plants) - إلى أن يقول:

«لقد اتفق علماء النباتات على النظرية القائلة بأنه لا يمكن تفسير ظاهرة وجود نباتات متماثلة في مختلف قارات العالم إلا إذا سلّمنا بأن أجزاء الأرض هذه كانت متصلةً بعضها ببعض، في وقت من الأوقات.»

وقد أصبحت هذه النظرية علمية تماماً بعد تصديق «الجاذبية الحجرية» لها (Fossil Magnetism)، فإن العلماء اليوم - بعد دراسة اتجاهات ذرات الحجارة - يستطيعون تحديد موقع أي بلد وُجدت به هضبةُ تلك الحجارة في الزمن القديم. وقد أكدت هذه الدراسة في «الجاذبية الأرضية» أن أجزاء الأرض لم تكن موجودة في

---

(1) النازعات/ 30 - 31.

القديم، بالأمكنة التي توجد بها اليوم، وإنما كانت في ذلك المكان الذي تحدده «نظرية تباعد القارات، وَفي هذا الأمر يقول البروفيسور بلاكيت[1]:

«إن دراسة أحجار الهند تبيّن أنها كانت توجد في جنوب خط الاستواء، قبل سبعين مليون سنة؛ وهكذا تثبت دراسة جبال جنوب إفريقيا أن القارة الإفريقية انشقت عن القطب الجنوبي قبل ثلاثمائة مليون سنة[2].»

❖ ❖ ❖

لقد ورد في الآية المذكورة آنفاً لفظة «الدحو»، ومعناه تسوية الشيء ونثره، كما يقال: «دحا المطر الحصى عن وجه الأرض»، وهذا هو نفس مفهوم الكلمة الإنجليزية: «Drift» التي استخدمت في التعبير عن النظرية الجغرافية الحديثة.

لسنا نملك أمام هذا التوافق المدهش بين ما ورد في الماضي البعيد، وما اكتشف بالأمس القريب، إلا أن نؤمن بأن هذا الكلام صادر عن موجود يحيط علمه بالماضي والحال والمستقبل على السواء.

---

(1) P.M.S. Blacket، أستاذ (الطبيعة) في الكلية الملكية بلندن ـ المعرب.

(2) انظر للتفصيل: ريدرز دايجست، عدد يونيه (حزيران 9 من عام 1961.

الشكل الأول: يبين حالة الأرض في بداية أمرها، قبل ثلاثمائة مليون سنة

الشكل الثاني: يبين حالة الأرض أثناء عملية انتشار وتباعد قاراتها وقد بدأت هذه العملية قبل خمسين مليون سنة

الشكل الثالث: يبين حالة الأرض بعد أن استقر أمرها، قبل مليون سنة

ثالثاً: علم الأغذية:

إن قائمة الأغذية التي يقررها لنا القرآن تحرّم (الدم)، وكان الإنسان غافلاً عن أهمية هذا التحريم، ولكن التحليلات التي أُجريت للدم قد أكدت أن هذا القانون كان مبنياً على أهمية خاصة بالنسبة إلى الصحة. فالتحليل يثبت أن (الدم) يحتوي كمية كبيرة من «حَمْض البَوْليك» Uric Acid، وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت غذاءً. وهذا هو السر في الطريقة الخاصة التي أمر بها القرآن في ذبح الحيوانات. والمراد من «الذبح» في المصطلح الإسلامي هو الذبح بطريقة معينة حتى يخرج سائر الدم من جسم الحيوان، وهو أن نقطع الوريد الرئيس، الذي يوجد في العنق، فقط، وأن نمتنع عن قطع الأوردة الأخرى، حتى يمكن استمرار علاقة المخ بالقلب إلى أن يموت الحيوان، لكيلا يكون سبب الموت الصدمة العنيفة التي وجهت إلى أحد أعضاء الحيوان الرئيسة، كالدماغ، أو القلب، أو الكبد، والمقصود من هذا هو أن الدماء تتجمد في العروق، وتسري إلى أجزاء الجسم، لو مات الحيوان في الحال ـ على إثر صدمة عنيفة ـ وهكذا يتسمم اللحم كله، نتيجة سريان «حَمْض البَوْليك» في أنحائه.

ولقد حرَّم القرآن لحم (الخنزير)، ولم يعرف الإنسان في الماضي شيئاً عن أسرار هذا التحريم، ولكنه يعرف اليوم أن لحم الخنزير يسبب أمراضاً كثيرة، لأنه يحتوي أكبر كمية من «حَمْض البَوْليك» بين سائر الحيوانات على ظهر الأرض. أما الحيوانات الأخرى، غير الخنزير، فهي تُفرز هذه المادة بصفة مستمرة عن طريق البول. وجسم الإنسان يفرز، تسعين في المائة من هذه المادة بمساعدة (الكليتين). ولكن الخنزير لا يتمكن من إخراج «حَمْض البَوْليك» إلا بنسبة اثنين في المائة (2٪)، والكمية الباقية تصبح جزءاً من لحمه، ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل والذين يأكلون لحمه، هم الآخرون، يشكون من آلام المفاصل، والروماتيزم، وما إلى ذلك من الأمراض المماثلة[1].

---

(1) ليكن مفهوماً هنا أنه عند وصف تأثير أي غذاء، لا يمكن إلا بيان تأثيره الذاتي من المنافع والمضار، وليس معناه أن تأثير ذلك الغذاء سوف يكون واحداً لدى كل إنسان يأكله. والسبب في ذلك أن الإنسان لا يأكل شيئاً بمفرده. وإنما يبتلعه مع مأكولات من أنواع عديدة، ولذلك قد ينقص تأثير ذلك الغذاء، أو يزول في بعض الأحايين، نتيجة ردود الفعل والأغذية المضادة لتأثير ذلك الغذاء، وعلى رغم ذلك كله فلا يمكننا وصف تأثير أي شيء إلا بما عرف عنه بصفته الفردية. =

إن الباحث في القرآن الكريم يجد أمثلة لا حصر لها، من هذا القبيل الذي أشرنا إلى بعضه في الصفحات الماضية، وهي دليل قطعي على أن القرآن صادر عن عقل غير إنساني. وتؤكد البحوث التي اضطلع بها العلماء في العصر الحاضر بطريقة مدهشة صدق تكلُّم النبوءة، التي وردت في القرآن الكريم:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1].

❖ ❖ ❖

وسوفَ أختم هذا الباب بواقعة رواها العالِم الهندي المغفور له الدكتور عناية الله المشرقي، وهو يقول:

«كان ذلك يوم أحَد، من أيام سنة 1909، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما. فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جيمس جينز - الأستاذ بجامعة كمبردج - ذاهباً إلى الكنيسة، والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوتُ منه، وسلّمت عليه، فلم يرد عليّ، فسلّمت عليه مرة أخرى، فسألني: «ماذا تريد مني؟.» فقلت له: «أمرين، يا سيدي! الأول هو: أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر!» فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور. فقلت له: «وأما الأمر الآخر فهو: ما الذي يدفع رجلاً ذائع الصيت في العالم - مثلك - أن يتوجه إلى الكنيسة؟.» وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظةً، ثم قال: «عليك اليوم أن تأخذ شايَ المساء عندي». وعندما وصلت إلى داره في المساء، خرجت «ليدي جيمس في تمام الساعة الرابعة، بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني. وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي. وكان البروفيسور منهمكاً في أفكاره، وعندما شعر بوجودي، سألني: «ماذا

= ولعل العلة الأخرى في تحريم الخنزير أساساً أنه حيوان قذر، يأكل النجاسات، فإلى جانب التحريم القطعي النصي له، يمكن أن نلحظ فيه علة التحريم (الجلالة) التي تأكل النجاسة، فقد نهى الرسول ﷺ عن أكلها أو شرب ألبانها. انظر: بداية المجتهد لابن رشد 2/ 481، و إلا فالأمراض التي ذكرها المؤلف شائعة في المسلمين وغيرهم، فهي راجعة إلى أسباب عديدة. (المراجع).

(1) فصلت/ 53.

كان سؤالك؟.»، ودون أن ينتظر ردّي، بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها ومداراتها وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة، حتى إنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله. وأما (السير جيمس) فوجدت شعر رأسه قائماً، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله. وتوقف فجأة، ثم بدأ يقول: «يا عناية الله؟. عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له: «إنك لعظيم!» أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين. وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة. أفهمت، يا عناية الله خان، لماذا أذهب إلى الكنيسة؟».

ويضيف العلامة عناية الله قائلاً: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفاناً في عقلي، وقلت له: «يا سيدي، لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس، فلو سمحتم لي، لقرأتُها عليكم»، فهزّ رأسه قائلاً: «بكل سرور»، فقرأت عليه الآية التالية:

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾[1]..

فصرخ السير جيمس قائلاً:

ماذا قلت؟.. ـ إنّما يَخْشَى اللهَ من عبَاده العلماءُ؟.! مدهش! وغريب، وعجيب جداً!! إن الأمر الذي كشفتُ عنه بعد دَراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمداً به؟. فاكتُبْ شهادة مني أن القرآن كتاب مُوحىً من عند الله.

ويستطرد السير جيمس جينز قائلاً:

لقد كان محمد أمياً، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السرّ بنفسه، ولكن «الله» هو الذي أخبره بهذا السر.. مدهش..! وغريب، وعجيب جداً[2]!!.

---

(1) فاطر/ 28.